الإطار المعرفي والموضوعاتي للعنف

د. محمد سعيدي

لم يكن العنف في يوم من الأيام خاصا بشعب دون آخر أو بزمن تاريخي دون سواه، أو بثقافة معينة دون غيرها أو أيضا بمجتمع بشري عن باقي المجتمعات. إن العنف ظاهرة سلوكية اقترنت بحياة الإنسان منذ أن وجد على سطح الأرض.

ومنذ أن أحس بوجود الآخر المختلف عنه، والمنافس له والمعاكس له، هذا "الآخر" الذي قد يكون إنسانا كما قد يكون حيوانا أو مظهرا من مظاهر الطبيعة والذي شكل "للأنا " عراقيل وحواجز مادية أو معنوية احالت دون تحقيق الرغبات المعاشية المختلفة ."

إن مشكلة العنف ليست بأي حال جديدة على الجنس البشري. ولكنها خلال السنوات الأخيرة أصبحت أمرا مثيرا للقلق والاهتمام نظرا للزيادة الملحوظة في سلوك العنف في كثير من أنحاء العالم. لقد تأكد بشكل جلي الحضور القوي للعنف كسلوك ثقافي. اجتماعي وسياسي، واقتصادي، وعقائدي، حيث تبناه الفرد أو الجماعة من أجل تحقيق الرغبات المادية والمعنوية التي عجزوا، تحقيقها بطرق سلمية معقولة وقد يشكل إصرار "الأنا" على تحقيق الرغبة الشخصية وإخضاع "الآخر " والسيطرة عليه المنبت الأول والأصلي لنمو العنف الذي أصبح في اعتقاد هذه الأنا ضرورة ملحة من أجل إثبات الذات وإشباع غرائزها مهما كان الثمن ومهما كانت النتائج وخطورتها على كيان "الآخر".

قد يستسلم "الآخر" للعنف الصادر عن "الأنا" الضاغطة القوية الطائشة والصاخبة، يستسلم استسلاما مقهورا مقموعا لا حول ولا قوة له حيث يفقد حقه في الحياة الشريفة والتزيهة وفي حريته وحرية رأيه وممتلكاته التي أصبحت مهددة أمام جبروت "الأنا"، غير أن هذا الأمر الاستسلامي لا يكون دائما بهذه الحالة، حيث قد يثور "الآخر" ويرفض هذا العنف وهذا الاعتداء ويرد دفاعا عن نفسه وعن كيانه بعنف آخر. بعنف مضاد قد يكون أقوى وأعنف من الأول .

وقـــد تستمر جدلية العنف والعنف المضاد بين الأطراف مدة من زمن مخلفة خسائر بشرية ومادية معتبرة :

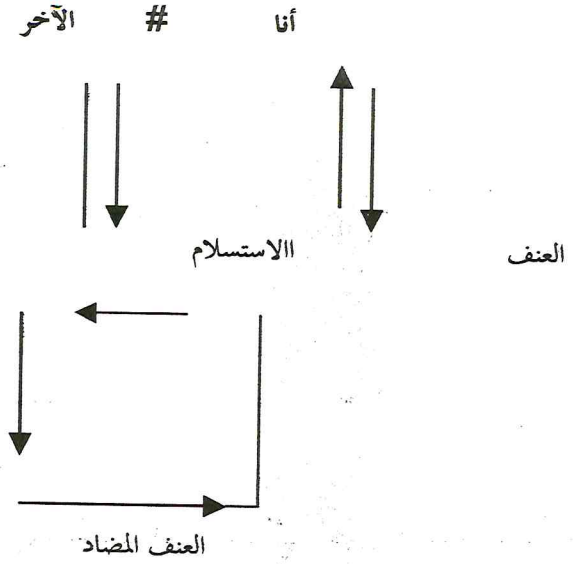

ولعل ما يفسر استمرار ظاهرة العنف والعنف المضاد هو ذلك السلوك التعصبي الذي قد يميز الطرفين المتعانقين حيث يعتقد كل واحد منهما أنه يحتكر لنفسه الحقيقة أو الفضيلة وأن غيره يفتقر إليها ومن ثم فهو دائما مخطئ أو خاطئ، ومن هنا فإن العنف الذي يتخذ شكل تحمس زائد للرأي الذي يقول به الشخص نفسه أو العقيدة التي يعتنقها يتضمن في واقع الأمر بعدا آخر، فهو يمثل في الوقت نفسه موقفا معينا من الآخرين، فحين أكون متعصبا لا أكتفي بأن أنطوي على ذاتي وأنسب إليها كل الفضائل، بل ينبغي أيضا أن استبعد فضائل الآخرين وأنكرها وأهاجمها"[1].

ونشير إلى أنه لم يعد العنف مقتصرا على مجال حياتي دون الآخر، لقد أصبح ممارسا في حقول اجتماعية وسياسية وعقائدية وثقافية واقتصادية دون أن تحده حدود قانونية أو أخلاقية، وبالتالي لم يعد غائبا كليا عن ساحة الحياة اليومية المعاشة، فهناك ألوان من العنف المقنن أو المقبول عرفا مما لا يثير تساؤلا رغم وقوعه في صميم هذه القضية، الأخلاقية الشائكة لسبب بسيط هو أن الذي يمارس هذا العنف هو الدولة أو العائلة أو المؤسسة الدينية والاقتصادية أو الاجتماعية المعترف بوجودها من أفراد المجتمع، ولذا فإن العنف الذي يثير جدلا ويطرح نفسه كـــقضية خروج عن القانون هو عنف الأفراد

أو الجماعات التي تحرك هذا العنف المفروض والتي تمثل حركتها نوعا من أنواع الخروج على الإرادة الاجتماعية المقننة"[2].

هذا، ونشير إلى أن العنف لم يولد من العدم بل لقد تسبب في ميلاده ونموه وانتشاره مجموعة من الأسباب والعوامل نجملها في العناصر التالية :

- ضغط المشاكل الاجتماعية والاقتصادية على الفرد الذي لم يعد قادرا على تحمل أعباءها (الفقر، الجوع، المرض، البطالة، السكن)
- ضغط المشاكل الثقافية والأخلاقية وآثارها السلبية (الانحلال الخلقي، الانحراف، الجهل، التخلف).
- ضغط المشاكل السياسية والإيديولوجية (القمع، الإهانة، غياب الحوار، غياب التسامح، غياب ثقافة الحوار والسلم).
- ضغط المشاكل النفسية (سوء التربية، المراهقة الطائشة، العقدة النفسية، التعصب، المعاناة، الغرابة..).

فالعنف يتموقع في مواضيع مختلفة من أنيتنا الفردية والجماعية بحيث يهدد وحدة النظرة وانسجامها. إنه ما فتىء يحسم حضوره على أكثر من واجهة، فهو يمثل داخليا بالنسبة إلى البعض إرهابا وسواسيا اعتبر التسامح استراتيجية للمواجهة، وهو خارجيا استعادة لمكبوت وظف من قبل من أعزاه الثأر للماضي والانتقام للحاضر والتحفز للمستقبل"[3].

ومهما يكن من أمر، لقد أصبح العنف سلوكا تبناه الفرد والجماعة من أجل إثبات وجودهم وتقوية كيانهم وفرض إيديولوجيتهم، لقد تبنوه سلوكا ومنهجية ووسيلة من أجل إخضاع الآخر المخالف والمتخلف والسيطرة عليه، بل أبعد من هذا، القضاء عليه وتدميره وتدمير كيانه المادي والمعنوي بصورة صريحة وعلانية .

ولقد تجلى هذا العنف في شتى الصورة وفي شتى الميادين، ويكفينا قراءة مسارات العنف في كل بقع العالم وفي كل مراحل التاريخ الإنساني لتتأكد على هذه التجليات المرعبة التي أبدعتها ثقافة العنف.

وقبل أن نواصل الحديث عن العنف والعنف في الثقافة الشعبية بالذات. لقد بدا لنا ضروريا بعد هذه المقدمة العامة للإطار الاجتماعي للعنف أن نحدد على المستوى اللغوي وعلى مستوى فهم بعض الباحثين له وتعريفا لهم له.

فالعنف كما حددته القواميس هو كما يلي:

العنف هو الخرق بالأمر وقلة الرفق به، عنيف به وعليه يعنف عنها وعنافة وعنفه تعنيفا، وهو عنيف إذا لم يكن في أمره، وفي الحديث الشريف قوله (ص): إن الله تعالى يعطي على الرفق ما لا يعطي إلى العنف. العنف هنا هو الشدة والمشقة وكل ما في الرفق من الخير، ففي العنف من الشر مثله.

فالتعنيف هو التعبير واللوم، التوبيخ والتجريح مصداقا لقوله (ص): إذا زنت ابنة أحدكم فيجلدها ولا يعنفها. أي لا يجرحها ولا يوبخها "[4].

وفي تعريف آخر، نقرأ ما يلي :

عنف : عنفا وعنافة بالرجل عليه و لم يرفق به وعامله بشدة، فهو عنيف، جمع عنف.

عنف (ه) عامله بشدة- لامه بشدة- عتب عليه- أعنف الأمر- أخذه بشدة- وأعنفه- عامله بشدة- العنف ضد الرفق- الشدة والقساوة.

الأعنف- عنيف : ضد الرفيق [5].

وقد يقابل مصطلح العنف في اللغة العربية مصطلح Violence في اللغة الفرنسية والتي جاء في صدد تعريفها في قاموس Petit Robert:

La violence: abus de la force – agir sur quelqu'un ou faire agir contre sa volonté en employant la force ou l'intimidation – le contraindre en le brutalisant ou en l'opprimant – s'imposer une attitude contraire à celle qu'on aurait spontanément.

فمهما كان التعريف، يبقى العنف سيمته القوة والبطش وضغط على الآخر بل تدميره وفرض عليه (أمورا) ثقافة وسلوكا يتنافى وإرادته وحريته وكيانه المادي والمعنوي والأخلاقي. فالعنف لما "يطلق من قيوده، يصبح الدم مرئيا، فيبدأ بالسيلان ولا يعود ممكنا إيقافه. يولج نفسه في كل مكان، وينتشر ويمتد بطريقة غير منظمة، إن جريانه يحقق الخاصية المقدسة للعنف وحضوره يعلن عن القتل، ويستدعي المآسي من جديد، فالدم يلوث كل من يمسه بألوان العنف والموت[6].

فالعنف في تقديرنا هو سلوك ابتدائي قد يكون باديا أو مختفيا- ماديا أو معنويا، وفي كل هذه الحالات فهو إنكار للآخر من مجال الحياة ومن مجال الفعل ومن مجال القول.

ومعظم حالات العنف كما يذهب إلى ذلك الدكتور خليل أحمد تبنى على الموروث ذهني جاهز قوالب مصممة عن الآخرين"[7].

وخلاصة القول، فإن العنف في أبسط معانيه الاجتماعية وأشدها وضوحا يمكن تعريفه على أنه الاستعمال غير القانوني لوسائل القهر المادي أو البدني ابتغاء تحقيق غايات شخصية أو جماعية على أنه في جوانبه النفسية يحمل معنى آخر معنى من معاني التوتر والانفجار يسهم في تأجيجها في داخل الفرد أو الجماعـــة عوامل كثيرة."(8).

الهوامـــــش :

1 غسان رابح: ظاهرة الإجرام السنتين – ط – دار المسيرة . ص 114.

2 ن.م: ص 64.

3.التيجانـــي القماطي: المقدس والعنف "في كتاب المقدس والإنسان ط. دار محمد علي الحامي – تونس ص 69

4. ابن منظور: لسان العرب– المجلد التاسع. ص 257 – باب العنف .

5. فردينال توتل . المجلد في الأدب والعلوم : مادة .عنف .

6. تركي علي الربيعو : العنف و المقدس و الجنس .ط دار المركز الثقافي العربي ص 111.

7. التيجاني القماطي : المقدس و المدنس ص 71

8. غسان رابح م س– ص39–40